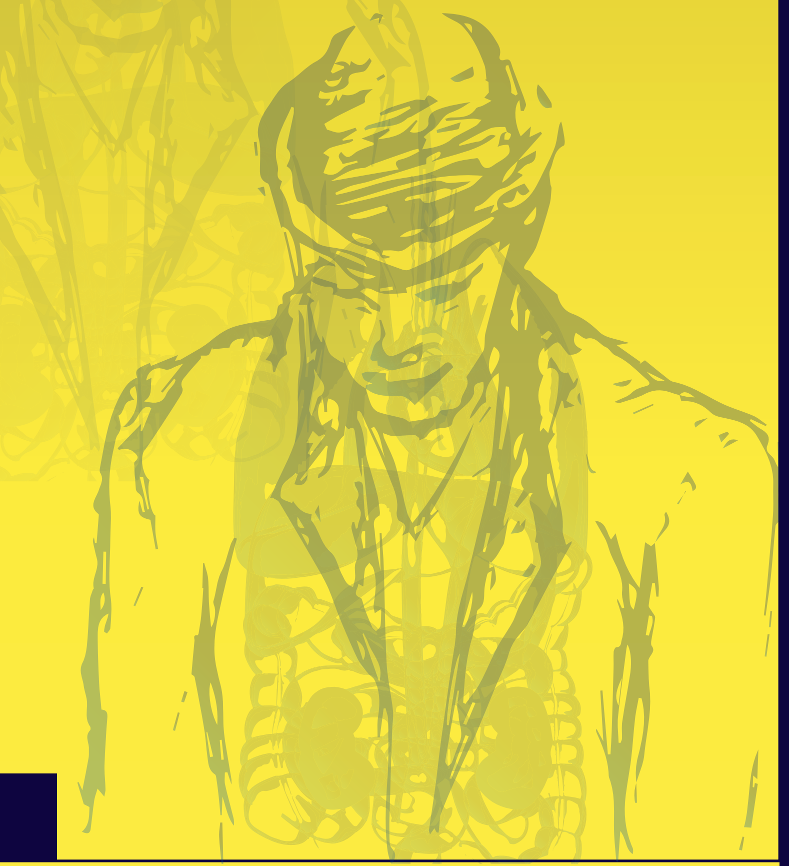
هادي محمد المحمود

على فراش النّدم



قصّة قصيرة

إلــى أعـداء القَنَـاعة...

إلــى أعداء الرِّضـا...

إلــى أعداء الصّـبر...

أهـدي هـذه القصّـَة.

شكرًا لكلّ قارِئ، وصديـق وعزيــز.

وشكر خاصّ للدّكتورة إيــفا فـؤاد ناصِـر.

على فراش الندم - هادي المحمود

"نحنُ نسعى لأنْ نتجنّب الألم أكثر مِن سعينا لأنْ نَجِد السَّعادة."

- سيغموند فرويد



قصّة قصيرة

عند السّاعة السّادسة صباحًا، استيقظ راغِد باكِرًا كعادته اليائسة، إنّه يوم الاثنين أي يوم آخر شاقّ، مرهِق وكئيب، هو ليس بيوم جديد. في عصر الحداثة والتّنظيم البعيد عن العاطِفة عامّةً والرّحمة خاصّةً، في عصر جعل النّاس آلات تعمل بملل وكلل، وشعور بالاغتراب. السّوق الحرّة الّتي تسعى إلى تحقيق أكبر قدر مِن الأرباح على حِساب صحّة الموظّفين والعمّال، حتّى الأساتذة الّذين لا يُقدَّرون في عصر التّكنولوجيا، وهيمنة سلطة أصحاب المال الّذين لا يعرفون للشّقاء معنى، ولا هم متذوّقون جهد الأبدان ولا روحِ الحرمان.

على فراش الندم - هادي المحمود

***

يعمل راغِد منذ عشرين سنة في مجال البناء براتب متواضع لا يؤمِّن له أكثر من حاجاته الأساسيّة. و لحظّه

الحسن، ففي الشّركة تأمين صحّيّ جيّد لا بأس به يُقتطع من راتبه كلّ سنة قسرًا. فشركة التّأمين رابحة لا شكّ، ما دام يتمتّع بصحّة جيّدة، وتتمنّى له دوام العافية إلى حين تقاعده.

***

وهذا العامِل الفقير قد فَقَد طموحه بعدما فَقَد أُسرته وهو لا يتعدّى العاشرة من عمره. حصل ذلك نتيجة معركة نشبت بين ميليشيات إثر خلاف على السّلطة... أمّا اليوم فقد باتت تنعم باتّحاد قويّ في ما بينها، بعد قتال دام شهورًا مخلّفًا آلاف الضّحايا الّذين لا يعنيهم هذا الصّراع، إنّما عيش كريم وحياة مستقرّة.

انطلق راغِد مُسرِعًا ليلحق الحافلة حتّى لا يُحسَم مِن راتبه. فالحافلة دومًا مستعجِلة، وكلّ شيء في هذا الكون الّذي نعيشه بات مستعجلًا لا ينتظر، ولا عذر لمتأخّر عنده... يبدو أنّها ظاهرة كونيّة فيزيائيّة مُتعلِّقة بالنّظريّة النّسبيّة، أو ربّما لأنّنا في عصر السّرعة المتعلّق بالتّكنولوجيا والإلكترونيّات، أو

على فراش الندم _ هدى المحمود

لضرورات الحياة اليوميّة المتعلّقة بالأنماط السّلوكيّة، وربّما بيولوجيًّا بسبب تقلّب نسبة الدّوبامين حيث يشعر السّعيد بمدّة تختلف عن تلك الّتي يشعر بها الحزين... أو ربّما تلك الأسباب كلّها مجتمعةً. مهما يكن السّبب، فالزّمن الآن مُتسارِع، إنّه كالموت لا ينتظر أحدًا.

***

كان الطّبيب المتواضع النّبيل رَشَاد يداوم في مستشفى خاصّة متعاقِدة مع شركات تأمين متعدِّدة. هو مِن الطّبقة المتوسّطة، في المُقابِل يملك رأسمالًا اجتماعيًّا وثقافيًّا لا بأس به؛ فهو يعرِف الفقير والثّري، ويعالِج هذا وذاك دون النّظر إلى المستوى الاجتماعيّ الطّبقيّ، فهذا ما أقسم عليه يوم تخرّجه، وهذا ما يعمل لأجلِه لمساعدة المرضى ومحاولة إنقاذِهم.

رَشَاد طبيب مُتخصِّص في أمراض الجهاز الهضميّ، مُتقِن عمله؛ يتبع منهج السّببيّة والشّكّ للوصول إلى تشخيص حقيقيّ دون تكهّن كما بعض من الآخرين. ينجح في كلّ

على فراش النّدم - هدى المحمود

تشخيص، لذا هو متفوّق في الكلّيّة الّتي تعلّم فيها، وعمِل كمُساعِد لأهمّ الأطبّاء في الخارج قبل أن يعود إلى وطنه، إيمانًا منه بأنّ أبناء وطنه أولى بعلمه وموهبته وإخلاصه.

على الرّغم مِن التّقديمات المُغرية في الخارج حيث تعلّم وعمِل لسنوات عديدة واكتسب خلالها الخبرات، لكنّ الحنين إلى الوطن كان أقوى من المكاسب لأنّه من أولئك الصّادقين.

***

كان راغِد يصل إلى عمله في الوقت المُحدّد تمامًا، حيث الورشة الّتي يعمل بها قد بَدَأَت منذ شهرين. راغِد ذو خبرة تربو على عشرين سنة في البناء. مُحتَرِف يَعمل طبقًا للتّصميم المُخطّط له دون زيادة أو نقصان؛ تصله الخرائط مِن مكاتب بعض المهندسين في الشّركة، فيُنفّذ تصاميمهم التّعجيزيّة. ومِن الحقائق الثّابتة أنّ ليس كلّ ما يجب أن يكون هو كائِنًا مئة بالمئة، إنّما تختلف الخطط بدرجات متفاوتة مهما كانت الخطّة دقيقة. على الرّغم من ذلك، فإنّ راغِد يجد للتّنفيذ طريقًا لا يفصح عنه للمهندسين بل يتبع مقولة ألبرت آينشتاين: "*سرُّ الإبداع هو معرفة إخفاء مصادرك.*"

على فراش النّدم - هدى المحمود

***

لا شكّ أنّ راغِد يحبّ عمله ويتقنه، ممّا يصبّره على تعالي بعض المهندسين ومدير شؤون الموظّفين. وعلى الرّغم مِن أنّهم يندهشون مِن عملِه البارع، فهم لا يُقدِّرونه حقّ قدره! فكم تمنّى أن تحدث معجزة ليتحرّر بعدما فقد أمله في إيجاد وظيفة أفضل. لكنّه لا يملك إلّا الخبرة في البناء. ومع ارتفاع نسبة البطالة وتأقلمه في هذه الشّركة، فليس هناك وقت آخر لتجربة أُخرى. وهو يرى أنّ سنّ التّقاعد البائس يقترب نحوه كسرعة انتقال النّاقلات العصبيّة بين خلايا الجهاز العصبيّ مِن الدّماغ وإليه. كان هذا هاجسه المُزمِن، في حين تبعده منه سبع عشرة سنة، إلّا أنّه يعتقد أنّ هناك مخرَجًا من هذه الورطة.

***

بعد مرور شهر وأيّام ثقال بين هواجس وأفكار مُدمِّرة للعقل البشريّ أشبه بجبل يعلو كتفيه، عاد مِن العَمل إلى منزله في السّابعة مساءً مُنهكًا، كإياب جندي مِن المعركة، لكنّه منتصر ومسطّر إنجازات متتالية في بناء آمن ينعم السّكّان

اللّاحقين بمسكن صلب يترجم شعاره: " كلّ ما بني على باطل فهو باطِل".

بدأ راغِد يشعر بوخز في بطنه، مِن الأسفل بين الظّهر والقولون، فلم يكترث كثيرًا وحسبه نتيجة العمل الشّاقّ حتمًا وردّة فعله، وقد يكون هذا الألم ردّ فعل ليوم عمل مُتعِب.

استلقى ليرتاح قليلًا على الأريكة بثياب العمل، ثمّ دخل في نوم عميق ليتنقّل بين حركة العين السّريعة وانعدام حركة العين، فصار في مرحلة الأحلام بسرعة.

لكنّ جهاز الألم يُعاود وظيفته ليوقظه وينذره بأنّ هناك خطبًا ما، يرافقه شعور بالغثيان.

لم يكن المرض يومًا عائقًا أمام استمراره في ممارسة عمله والحضور يوميًّا بانتظام. حينها، قرّر النّوم دون الالتفات إلى جهاز الألم؛ فكُلّ شيء في هذا العالَم يقوم بوظيفته بدقّة.

في صباح اليوم التّالي، وقف راغِد في موقع العمل على غير عادته فشعر بضعف، وبألم مجدّدًا، وغثيان أكثر.

ازداد الألم أكثر فأكثر فأعجز طاقته عن التّحمّل، عندها قرّر زملاؤه نقله فورًا إلى قسم الطّوارئ دون تأخير كما هي الحال في الكون الفيزيائيّ: الوقت لا ينتظر أحدًا...

على فِراش النّدم - هادي المحمود

***

التقى ثلاثيّ في المستشفى: الطّبيب رَشَاد ، وعامِل البناء راغِد، وخيبة أمل حسابات شركة التّأمين! وهذا اللّقاء لم يأتِ صدفة؛ فالكون خاضع لقوانين مُنسّقة ومُنتظِمة، لكنّنا نحن البشر مهما علمنا وعرفنا، لا نستطيع كشف القوانين بدقّة وإحكام مُطلَقيْن.

***

شكّ الطّبيب رَشَاد كعادته بأنّ حال هذا العامِل ليست طبيعيَّة، فطلب له صورة مقطعيّة (CT Scan) لقطع الشّكّ باليقين، بالإضافة إلى تحليل دم، وبعض الفحوصات الرّتيبة.
نعم، هذا ما توصّل إليه الطّبيب المُحترِف كما توقّع عند معاينة راغِد في غرفة الطّوارئ، وأصبح الآن على يقين مِن الأمر برمّته.

- حان وقت إخبار مريضنا بالنّتيجة. حدّث الطّبيب نفسه وهو في طريقه إلى غرفة راغِد.

- مرحبًا، أنا طبيبك الخاصّ مِن الآن، بإمكانك اعتباري صديقًا أيضًا. قال بصوت مرح.

- شكرًا لك. ما هي حالتي ؟! ردّ راغِد بصوت مرتجف.
- لا تقلق، ليس الأمر خطرًا، ستعيش. أجاب الطّبيب مبتسمًا.

ضحك راغِد وردّ مازحًا: نعم، للأسف.

اعتدل الطّبيب ثمّ أردف: "عندي لك خبران، أحدهما سيّئ إلى حدٍّ ما، والآخَر... رائع، رائع!"

- لنبدأ بالسّيّئ أوّلًا فربّما يخفّف عنّي الثّاني." ردّ راغِد حائرًا.
- حسنًا، لقد تبيّن معَنَا في التّحليل المخبريّ أنّ كريات الدّم البيضاء مرتفعة نسبتها كثيرًا نتيجة التهاب الزّائدة الدّوديّة، فهذا ما أوضحته الصّورة المقطعيّة -كما توقّعت تمامًا-.
- إذًا، أنا الآن بانتظار العمليّة الجراحيّة، أليس كذلك؟ تساءل راغِد منكسرًا.

- لا، لا حاجة للجراحة، فقد تداركنا الأمر قبل التهابها بالكامل، ستحتاج فقط إلى الدّواء والرّاحة."

على فراش النّدم - هادي المحمود

- لقد أخبرتني للتّوّ الخبريْن، السّيّئ والجيّد معًا."
- "انتظر، أخبرتك الأوّل، وها أنا جاهز لإخبارك الآخَر".

علّق الطّبيب بصوت حاسم.

***

نظر الطّبيب خلفه متفحّصًا ثمّ قصد باب الغرفة وأوصده، واتّجه نحو راغِد ليزفّ إليه ما اكتشفه.

في هذه الأثناء، لم يتوقّف راغِد عن التّفكير محاوِلًا توقُّع المضمون؛ يبدو أنّه مهمّ جدًّا، ربّما خطِر. بدأ يتوتّر فعلًا وهو يتساءل ما مدى خطورة هذا الخبر المهمّ الّذي لا يريد الطّبيب لأحد أن يسمعه!

قال الطّبيب وهو يتفحّص عيون راغِد : "أنتَ الآن تحمل ثروة كبيرة داخلك، نِعمة مِن الله تعالى، وأنا على يقين بأنّ وصولك إلى المستشفى هنا هو أمر يتعلّق بتغيير حياتك إلى الأفضل. رغم أنّك تألّمت وشعرت أنّ في الأمر سوءًا، فهذا يبدو

على فراش النّدم - هدى المحمود

لك في الظّاهر فقط، أمّا ما يخفى وراء ما نراه سوءًا لنا ما هو إلّا تبدير الله عزّ وجلّ ودائمًا في صالحنا."

ثُّم تَابَع بصوت جادّ: "كما تعلم يا راغِد، أنا طبيب لديّ الكثير مِن المعارف مِن الطّبقات والفئات الاجتماعيّة كلّها، وأعرف ثريًّا مريضًا يتابعه صديقي الجرّاح المتخصّص بأمراض الكلى."

- وما علاقتي بذلك ؟!" – سأل راغِد مستغربًا.
- صحّته في صحّتك! تبيّن لنا في الصّورة المقطعيّة أنّ الكليتيْن سليمتان؛ ففي البداية شككنا بوجود رمل أو حصى في إحداهما... لكن اطمئن. أمّا الثّالِثة.... قاطعه راغِد مصفرّ الوجه، – أمّا ماذا!؟ الثّالِثة!
- لا تقلق، نعم الثّالِثة! لديك ثلاث وبِحالة جيّدة جدًّا، كما أنّ تحليل الدّم تطابق تمامًا مع دم مريضنا، وهذا ما أكّده أيضًا زميلي الجرّاح. أجاب الطّبيب بثقة.

فَهِم راغِد الأمر برمّته؛ عليه أن يتبرّع بالثّالثة لمريض صديقه. نعم، هذا ما فكّر به في أجزاء مِن مليار جزء مِن الثّانية.

على فراش النّدم - هدى المحمود

مرّت دقائق بعد أن طلب الطّبيب مِن راغِد أن يقلّب الأمر في رأسه جيّدًا، وأعلمه أنّ المريض الثّريّ بحاجة سريعة إلى الكلية وإلّا مات خلال الأسابيع القادِمة، وأنّه مُستعدّ أن يدفع ما يملكه من مال مهما بلغت القيمة مقابل صحّته الّتي لا تُعوَّض.

***

كان أسبوعًا كاملًا مِن التّفكير العميق ما بين الإقدام والإحجام، أسبوع عصف ذهن يستبدّ به ليلًا نهارًا!

وفي الجانب الآخر، كانت الآلام لا تفارق الثّري وأيّامه في تناقص سريع.

***

يومًا، زار مدير شؤون الموظّفين موقع العمل في مهمّة دوريّة روتينيّة لتقييم أداء الموظّفين. بينما كان في طريقه نحو مدخل البناء، رأى راغِد قابعًا في إحدى زوايا الغرف المبنيّة بإتقان واحتراف. تناسى المدير المُقرّب مِن أحد رجال الأعمال أنّ هذا وقت الرّاحة اليوميّة المُشرَّع في قانون العَمَل، فأمَرَ راغِد

على فراش الندم - هادي المحمود

العودة إلى المنزل ليستريح هناك، بعدما يعرّج على المُحاسِب في الشّركة ليأخذ تعويضه: "هنا مكان عمل لا مكان راحة ومرض"، قالها بصوت حادّ!

قطّب راغِد حاجبيْه محاولًا استيعاب ما سمع وهو يستذكر قول جوناثان سويفت: *"القوانين مثل بيوت العنكبوت، بإمكانها الإمساك بالذّباب الصّغير، لكنّها تسمح للدّبابير بالمرور."*

فجأةً تذكّر كلام الطّبيب حين قال: *"وأنا على يقين بأنّ وصولك إلى المستشفى هنا هو أمر يتعلّق بتغيير حياتك إلى الأفضل."*

كان هذا التّعسّف كفيلًا بأن يدفع راغِد إلى اتّخاذ القرار الحاسم، فلم يعد يتحمّل المزيد مِن الأعباء النّفسيّة والفروق الطّبقيّة والفقر، فأمامه الآن خيار واحِد: بيع هذا الكنز.

***

تخلّى راغِد عن حقّه في التّعويض الماليّ، وترك المكان دون تردّد مُقرّرًا زيارة الطّبيب رَشَاد لتحديد موعد الجراحة بأسرع وقت ممكن، مع تحديد قيمة المبلغ الّذي يريده ضمن إطار

على فراش النّدم هدى المحمود

المشروعيّة القانونيّة والرّقابة. فقد آن أوان الاستقرار والتّخلّص مِن حياة المعاناة والاستغلال والشّقاء. حان وقت تحقيق الأحلام الّتي كانت مُستحيلة دون المال الوفير.

***

هاتف الطّبيب صديقه الجرّاح وبشّره بالخبر السّارّ، فكانت الجراحة.

مرّ الوقت سريعًا بين الجراحة والشّفاء، وحصل راغِد على مراده فتحقّق الخير للجميع؛ المريض الثّريّ حصل على الكلية البديلة ليتعافى رويدًا رويدا، والطّبيبان الاثنان حقّقا إنجازهما بنجاح وإخلاص، أمّا راغِد فأصبح ثريًّا سليمًا ومعافى.

***

انقلبت حياة حديث النّعمة راغِد رأسًا على عقب خلال أسابيع، فصار يشتري ما يشتهي ويسافِر إلى بلدان حلم بزيارتها، وأراد أن يعرف إذا كانت كما تخيّلها، أم مُجرّد بروباغندا لجذب عدد كبير من السّيّاح لأهداف اقتصاديّة وأيدولوجيّة غير مباشرة... كان يستمتع إلى أقصى الحدود، وبات يرى الحياة

على فراش النّدم - هدى المحمود

الآن بمنظور مختلف عن سابقها؛ يشتري المنازل الفخمة والسّيّارات ويملك طائرة خاصّة ويختًا... فهو شخص مختلف عمّا كان قبل الثّراء!

***

كأنّ المال يُحوِّل الإنسان إلى إنسان آخَر، وربّما يُظهِر معدن الإنسان على حقيقته، لكنّ الحقيقة المؤكَّدة هي أنّ المال بريء مِن نيّات البشر وأفعالهم.

***

كان الوقت يمرّ سريعًا بينما يستمرّ راغِد في الشّراء والسّفر والتّرف... إلى أن وقع المُتوقّع خارج حساب راغِد، الّذي فقد وعيه أمام المال الوفير بعدما أصبحت اللّامبالاة سمته والإسراف ديدنه.

فأخذت ثروته تتناقص؛ تراكمت الضّرائب على العقارات، وازدادت المُستحقّات الّتي يتناساها ويسهو عنها كأيّ شخص لديه ذات صِفَاته (ونحن نعرف الكثير منهم في حياتنا).

على فراش النّدم - هدى المحمود

وأصبح يشعر بالخوف مِن العودة إلى عهد فقره السّابق، وإلى حياة العمل والجهد والوظيفة والرّتابة، وتحقيق أحلام صاحب العمل.

***

عاد راغِد مِن أوروبا إلى بلده الأمّ حيث شقّته الجديدة المُطلّة على البحر الأبيض المتوسّط، فالمتوسّط أصبحت طبقته بعدما انتقل مِن طبقة الأثرياء مؤخّرًا !

لم يتأخّر عن الاتّصال بالطّبيب الّذي قال له يومًا: *" أنا طبيبك الخاصّ مِن الآن، وبإمكانك اعتباري صديقًا أيضًا."*

– "كيف حالك ؟" قال راغِد بصوت متعثّر.

– "بخير، مَن المتكلّم؟"، أجاب الطّبيب مستفسرًا.

– "صديقك راغِد". ردّ خجلًا.

– "نعم نعم، تذكّرتك، مرّ الوقت منذ تواصلنا الأخير! كيف حالك، وكيف هي صحّتك ؟" قال الطّبيب باهتمام.

– "الحمد لله، أنا بخير، صحّتي جيّدة" ردّ راغِد حزينًا.

– "يبدو صوتك مضطربًا قليلًا، هل ثمّة أمر يزعجك؟" سأله الطّبيب قلقًا.

–"ربّما قليلًا، متى يُمكننا أن نلتقي مجدّدًا ؟"

– "إن أردت، غدًا عند المساء، أدعوك إلى منزلي على العشاء".

– راغِد: "أفضّل أن نلتقي خارج منزلك، في أحد المقاهي، وسآتي إليك، انتظرني قبل العشاء".

– " يبدو الأمر مهمًّا جدًّا... لنلتقي قبل العشاء".

– "نعم، لا أريد الانتظار أكثر، إذًا اتّفقنا؟ ".

– "كما تريد، بانتظارك غدًا قرب عيادتي."

– "حسنًا، هكذا أفضل، إلى اللّقاء."

– "إلى اللّقاء."

***

في اليوم التّالي، عند مغيب الشّمس، أنهى الطّبيب عمله ليلتقي بِـ راغِد قرب العيادة، يعلوه القلق وتدفعه العجلة. لاحظ الطّبيب تلك العلامات على وجه راغِد فقلق بدوره واحتار.

على فراش الندم - هادي المحمود

-"ما الأمر ؟ لمَ أنتَ مضطرب، هل مِن خبر سيّئ ؟" خاطبه الطّبيب جادًّا.

-"لا.. أعني قليلًا، لنذهب إلى المقهى فأنا بحاجة لاستراحة وفنجان قهوة." أجابه راغِد في عجلة.

-وافقه الطّبيب هازًا رأسه: "نعم لا شيء يُعدِّل المزاج كالقهوة... والاستراحة قليلًا مِن المنزل، فلنذهب." ثمّ أضاف:

- "قل لي يا راغِد، ما الّذي يزعجك؟"

- " لا أُخفي عليك، عشت حياةً رائعة، وتنعّمت كثيرًا بالمال الّذي حصلت عليه مقابِل الجراحة."

فقاطعه الطّبيب مؤكّدًا:

- " طبعًا، وَمَن لا ينعم بهذا المال الكثير؟! أنتَ طلبتَ نصف ثروة الغنّيّ علمًا أنّ تلك الجراحة لا تساوي ما قدّمه مقابل كليتك!"

- "لكنّه كان مستعدًّا لدفع ثروته بالكامل مقابِل حياته." أجاب راغِد مستنكرًا.

- "صحيح، وهو الحين ينعم بصحّة جيّدة، ونصف ثروة، مثلكَ تمامًا."

على فراش الندم - هادي المحمود

– "ربّما... لكن..".

– "لكن ؟!"

– "أصبحت على شفير الإفلاس، وهذا موضوعنا الآن، أردت التّحدّث إليك بهذا الشّأن."

– "أستطيع مساعدتك لا تقلق، كم تريد؟"

– "لا، أشكر لك كرمك، لكن ليس هذا ما أريده حقًّا!"

– "إذًا ؟"

– "أريدك أن تتحدّث إلى زميلك الجرّاح،عليّ القيام ببيع كلية أُخرى، فأنا بحاجة لمبلغ كبير."

غضب الطّبيب، وكاد يبرحه ضربًا لولا أن أمسك يده! ثمّ أردف مشيرًا بإصبعه نحوه: "اسمع يا راغِد، أنا طبيب والطّبّ عمل إنسانيّ لا يزاوله إلّا "الحُكماء"، وأنا لست تاجرًا!"

– "حسنًا، لقد أعددتك صديقي كما قلت، ولهذا أنا هنا، على كلّ حال، يمكنني إيجاد شخص آخر يقوم بالمهمّة وشكرًا على وقتك... وهذا حساب القهوة."

وانصرف راغِد غاضبًا ومتذمّرًا.

على فراش النّدم - هادي المحمود

فكّر الطّبيب قليلًا، ثُّم قرّر أنْ يُلبّي طلبه لسبب وجده منطقيًّا وهو ألّا يذهب إلى شخص آخر يستغلّه في هذا المجال، فتجّار الأعضاء كثيرون وليسوا أطبّاء!

ساعده، فهو لا يستطيع منعه لأنّه يعرف جيّدًا أنّ لا قانون يمنع هذا العمل، وأكّد عليه منبّهًا:" لكن يا صديقي لن تجد مَن يدفع لكَ كالثّريّ، فذلك المريض كان استثناءً."

– "لا مانع لديّ، المهمّ أن أسدّد مستحقّاتي كاملة وإلّا سُجنت، ثُمّ أعود إلى حياتي السّابقة كما كنت."

– "حسنًا، لكنّني لست مسؤولًا عن المخاطِر الّتي مِن المُحتَمَل أن تواجهك فيما بعد." قال الطّبيب بحزم وهو يرفع يديه.

– "ها أنتَ توافقني وفي المقابِل لا تريد تحمّل أيّ مسؤوليّة، أتفهّمك فهذا مِن حقّك، لكن لماذا بدّلت موقفك خلال لحظات ؟!"، سأله راغِد بفضول.

– "لا أريد أن يستغلّك أحد، فأنت تجهل ما تقوم به، ولا يمكنني منعك، فالأفضل أن أوافق، على الرّغم من عواقب مُحتملة قد تصيب صحّتك لاحقًا."

على فراش النّدم - هدى المحمود

ردّ راغِد مستشهدًا بقول المُتَنَبّي:

-" أنا الغريقُ.. فما خوفي مِن البللِ!"

-"حسنًا، كما تريد، سأفعل ما بوسعي لِأَجْلك وربّما لأجَلِك."، وافق الطّبيب مستسلمًا.

***

حدَّد الطّبيب موعدًا لجراحة جديدة بالتّنسيق معَ المعنيّين قانونيًّا وطبّيًّا، وكان الأهمّ بالنّسبة إلى راغِد هو المبلَغ المرجو تحصيله.

مرّت الأيّام والأسابيع، كما جرتِ العادة على النّظام الكونيّ القائِم، نِظام الزّمن الحديث السّائِل، بحَسب تعبير سيغمونت باومان. وحصل راغِد على مراده لتسديد المُستحقّات والعودة مِن جديد إلى مبدأ فرويد القائِل: *"نحنُ نسعى لأنْ نتجنّب الألم أكثر مِن سعينا لأنْ نَجِد السَّعادة."*

وها هو قد سعى إلى تجنّب ألم السّجن وألم العودة إلى الحياة الماضية في مجال البناء والعمل الشّاق، ظنًّا منه أنّه يُحقّق السّعادة بكلية واحدة!

***

على فراش النّدم - هدى المحمود

بعد ستّة أشهر، بدأ راغِد يتعب أكثر منذ إجراء الجراحة الأخيرة، الأمر الّذي توقّعه الطّبيب صاحب البصيرة والضّمير الحيّ. لكن لا يُمكنك تغيير سلوك أحدٍ ما، أو إقناع أحدهم بأمر يتعلّق بالشّهوة، شهوة حبّ المال والعاطفة المهيمنة على العقل. فربّما لم يستطع الطّبيب إقناع راغِد لأنّه لا يملك موهبة الإقناع، وربّما الغرائز أقوى مِن محاولات التّأثير العقلانيّة.

***

فشلت الأدوية أن تلعب دورها! لا شيء سوى المُسكِّن الّذي اعتاد عليه قبل أسبوع منذ ظهور آلآم في الجسد لم يكن يتوقّعها.

على الرّغم مِن امتلاكه المال، وتخلّصه مِن الدّيون، وبيعه الممتلكات في الخارج بعد تسديده الضّرائب، واستقرار وضعه المادّيّ، تراجعت صحّته وساءت. فبات يعرف أنّ أيّامه معدودة بعدما تدهور جسده بالكامل وتداعت وظائفه على اختلافها كما تتدهور دولة ما في مراحل قيامها الأخيرة، الأشبه بِنظريّة ابن خلدون حول انحلال الدّوَل والامبراطوريّات، حيث مرحلة التّراجع والانحلال نتيجة التّرف والإسراف.

***

على فراش الندم - هادي المحمود

توفّي راغِد!

شيّعه صديقه الطّبيب وزميله الجرّاح، والرّجل الثّريّ المعافى، وزملاؤه في العمل القديم، ورجل جديد يقف بعيدًا، يبدو أنّه بانتظار أحدهم، انتبه له الطّبيب فتوجّه إليه مباشرة فكان محامي راغِد، طلبه قبل أيّام مِن وفاته، فشعوره بالرّحيل أجّج عواطفه، وجرّعه الكثير مِن النّدم!

حمل المحامي الوصيّة الخاصّة والموجّهة إلى الطّبيب، ولا شكّ أنّها تحدّد توزيع الثّروة. وما لم يكن متوقّعًا هو ما أوصى به صديقه الطّبيب!

صديقي الطّبيب العطوف:

"أدركتُ أنّني أخطأت بعد فوات الأوان. وبعد معاناتي، عرفت أنّ الله تعالى أعطاني نِعمة لم أحفظها؛ فكم عاقل ذهب ضحيّة أهوائه وجشعه، وكم مُسرِف لم يُقدِّر ما أنعم الله به عليه... وأنا وقعت ضحيّة طمعي فلم أستغلّ تلك النِّعَم، ولم أوظّف مالي بالتّجارة، ولم أعطِ الفقراء، أو أستثمر المشاريع النّافعة للمجتمع ولي! إنّما أنفقتها على ملذّات الحياة الفانية، لذا، أريد أن أعوّض حتّى لو لم أكن موجودًا بينكم الآن.

أيّها الطّبيب الصّدوق،

على فراش النّدم - هادي المحمود

لقد أجريت تحليلًا للكلية الثّالثة دون علمك، اعذرني فلم يكن لديّ الوقت لأشرح لك لو طلبت هذا التّحليل منك... وتبيّن أنّ هذه الأخيرة بحال جيّدة جدًّا.

بناءً عليه، تبرّعت بها بعدما أوكلت طلبي هذا زميلك الجرّاح، ينقلها لِمَن يستحقّها دون مُقابِل.

شكرًا لمحاولتك إقناعي مرارًا وتكرارًا، لكنّني لم أرَ سوى المال. جِئتُ إلى الدُّنيا بثلاث كلى، وذهبت دونها!

على فِراش النّدم،

أقول لكَ يا صديقي رَشَاد.. وداعًا."

***

"دور الصّديق هو أن يكون إلى جانبك عندما تُخطئ، لأنّ الجميع سوف يكون إلى جانبك عندما تكون على حقّ!" – مارك توين.



صَدَرَ له:

- الهادي إلى تحسين الخط العادي
- وجهة فِكر - خواطر فلسفية